نساء صوفيات

٤ ـ عمرة إمرأة حبيب العجمى

للأستاذ فوزى عرفه

فى الحديث عن النساء الصوفيات تصادف الباحث صعوبتان : الصعوبة الأولى هى ندرة المراجع التى تتحدث عن النساء الصوفيات سواء فى الكتب الصوفية أو فى كتب التراجم بصرف النظر عن رابعة العدوية التى نالت شهرة تكاد لا تشاركها فيها أى صوفية جليلة والصعوبة الثانية تتمثل فى التضارب الظاهر بين روايات هذه المراجع النادرة عندما تتناول شخصية من هذه الشخصيات .

ولعل القارىء أن يكون قد لاحظ هاتين الصعوبتين عند خلط الكتاب بين شخصيتى رابعة العدوية ورابعة بنت اسمعيل الشامية وفى عدم معرفتنا اسم إمرأة رياح القيسى وفى جهل بعض المصادر التى تحيط بشخصية معاذة العدوية فيما أسلفنا من حديث عنها . إذا عرجنا على إمرأة حبيب العجمى اجتمعت لدينا هذه الصعوبات جميعاً وكونت أمامنا عقبات ينبغى على الباحث أن يلتى إليها جماع همه عندما يحاول أن يغذ سيره نحوه الوضوح .

فمن هى عمرة هذه ومن هو زوجها حبيب العجمى ؟ لا يمكننا أن نجيب على هذه الأسئلة بما يشفى الغليل إلا أنه من تحليل اسم زوجها يمكن لنا أن نقول فى شىء من الحذر إنه ربما كان من بلاد فارس ومن ثمة جاءه لقبه « العجمى » وأما هى فمجهولة النسب والأصل والوطن والنشأة والتربية . وغاية ما يمكن أن يقال فى هذا المجال أن عمرة قد وجدت حقيقة فى واقع الحياة وأن حبيبا العجمى زوجها قد وجد ولكن توضيح الصورة التى كان عليها زوجها هو الذى يحتاج إلى كثير من البحث والتمحيص .

ولعل حبيبا وزوجه عمرة أيضاً قد وجدا فى البصرة بعد تلك النشوة الغامرة التى ملأت نفوس سكان هذه المدينة بالتجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله . وقد مضى حبيب وعمرة ولم يخلفا لنا إلا صفحات طيبة لحياة صوفية مفعمة بالاعتماد على الله سبحانه وتعالى فلما أراد المؤرخون أن يثبتوا هذه الاسماء العديدة التى أزدهرت فى الحياة الروحية الإسلامية اختلطت عليهم الاسماء والأفعال والصفات ، بل وزاد على ذلك خلط فى الصورة التى تترك عن الصوفى أو الصوفية بحيث نجد الصوفى مثلا يوصف بصفتين متناقضتين كما رأينا عند رياح القيس واستطعنا أن نحل هذا التناقض بافتراض له من الحقيقة سند وبرهان : أعنى أقترانه بزوجه ثم تأثيرها فيه تأثيراً كبيراً فاستطاعت أن تغير من أخلاقه وتسلكه فى عداد الصالحين فتاب وأناب وعلى هذا حللنا عقدة الصورتين المتناقضتين عنه بأن جعلنا أول حياته مشوبا بالأغراق فى اللذات وخاتمتها مغمورا بالانقطاع إلى العمل الصالح وبذلك وجهنا الأنظار إلى قيمة تأثير زوجه فى خلقه فكان ذلك فى نفس الوقت رفعا من شأنها وتكريما لذكراها .

ونفس هذه الصعوبة تقابلنا عند الحديث عن حبيب العجمى فمرة يوصف بأنه خامل الذكر قليل العمل ينام فى الليل والعباد يقطعونه فى الذكر والعبادة وتلومه زوجه على هذا القعود عن التقوى كما رأينا عند رياح القيس وقد روى لنا ذلك عنه صاحب الطبقات الكبرى ويدعم هذه الرواية صاحب روض الرياض فى حكايات الصالحين « الشيخ اليافعى اليمنى » : فصاحب الطبقات الكبرى يقول : « ومنهن يعنى عباد النساء — عمرة إمرأة حبيب رضى الله تعالى عنها كانت تقوم الليل كله فإذا جاء السحر قالت لزوجها : قم يارجل ، قد ذهب الليل وجاء النهار وانقض كوكب الملأ الأعلى وسارت قوافل الصالحين وأنت متأخر لا تدركهم » وصاحب روض الرياحين فى حكاية الصالحين » يروى لنا رواية تشبه هذه فيقول « روى أن عمرة إمرأة حبيب العجمى رضي الله عنهما كانت توقظه بالليل وبين يديك طريق بعيد وزادنا قليل وقوافل الصالحين قد صارت قدامنا وبقينا نحن »

وخلاصة هاتين الروايتين أن حبيبا كان يتقاعس عن القيام فى الليل بينما زوجه

تتحرق شوقا إلى مداومة الاتصال بالله والاهتمام بالمناجاة والذكر لأن الطريق بعيد والزاد قليل وان يهيأ لمن يسلكه النجح إلا إذا أخذ له أهبته وأعد له دابته .

على أن هذه الصعوبة يمكن لنا أن نتغلب عليها بنفس الافتراض الذى افترضناه سابقاً عند الحديث عن امرأة رياح القيس ، ذلك لأن القرن الثانى من الهجرة وبداية القرن الثالث — وهو الزمن الذى نرجح فيه وجود عمرة وزوجها — كان مملوءاً بمباهج الحياة . فلا يستبعد أن يتجه الشباب فى أول حياتهم نحو هذه المباهج يقترفون منها وينهلون . ولكن البصرة تميزت بوجود طائفة عديدة من عباد النساء فى هذا الوقت منهن رابعة العدية وزوج رياح القيس وحيونه وغير هؤلاء وكثير ممن جعلن لهن تقليدا فى قضاء الليل فى الذكر والتهجد وارتبطن برابطة الروحية الصوفية . لهذا لا يستبعد أن تكون عمرة من هؤلاء النسوة أو سمعت عنهن فلما تزوجت حبيبنا العجمى أثرت فيه بخلقها الكريم وجعلته يشرب من معين الروح الصافى فغب منه كأسه وهو ظمآن .

تلك صعوبة يمكن أن نحلها على هذا الوجه ويبقى أمران :

الأمر الأول : أن حبيبا مرة يوصف على أنه فقير ومرة أخرى يوصف على أنه غنى ومن عجيب الأمر أن الذى يروى لنا هاتين الصفتين على تناقضهما صاحب «روض الرياضة» فيقول « حكى أن حبيبا العجمى (رضي الله تعالى عنه) كانت له زوجة سيئة الخلق فقالت له يوما : إذا لم يفتح الله عليك بشيء فاجر نفسك واعمل فى الفاعل فخرج إلى الجبانة وصلى إلى العشاء ثم أتى بيته خجلا من توبيخها مشغول القلب من شرها فقالت : أين اجرتك ؟ فقال لها : إن الذى استأجرنى الكريم استحيت من إستعجاله . فمكث كذلك أياما يصلى فى الجبانة . إلى الليل وتقول له أين أجرتك ؟ كل يوم يقول لها : استأجرنى كريم فخفت من استعجاله فلما طال عليها الحال قالت له اطلب أجرتك من هذا أو أجر نفسك من غيره فوعدها أنه يطلب الأجر وخرج إلى عادته فلما أمسى الليل عاد إلى منزله خائفاً منها فرأى فى بيته دخانا ومائدة منصوبة وزوجته مستبشرة فرحة فقالت له قد بعث لنا الذى استأجرك مابعث الكرام وقال رسوله لى قولى لحبيب يجد فى العمل وليعلم أنا لم نؤخر أجرته بخلا ولاعدما فيقر عينا

ويطيب نفساً . ثم أرته أكياساً مملوءة دنانير فبكى حبيب وقال لزوجته : هذه الأجرة من كريم بيده خزائن السماوات والأرض فلما سمعت ذلك تابت إلى الله تعالى وأقسمت أنها لا تعود إلى ما كانت عليه .

كما يروى عنه أيضا أنه لم يكن يملك إلا قوت يومه أو ما يكاد يكفيه بجهد فيقول « روى أنه أتاه سائل وقد عجنت أمرأته عجينا وذهب يجيء بنار لتخبزه فقال للسائل خذ العجين فأخذه فجاءت أمرأته وقالت له : أين العجين فقال لها : ذهبوا به يخبزونه فلما أكثرت عليه أخبرها فقالت : سبحان الله إلا بدلنا من شيء نأكله فإذا برجل قد جاء بحفنة عظيمة مملوءة خبز ولحما فقالت : ما أسرع ما رده عليك قد خبزوه وجعلوا معه لحما . رضى الله عنه ونفعنا به » .

وذلك جانب يصوره لنا بمظهر الفقير المحتاج . وأما الجانب الآخر فيصوره لنا فى صورة الرجل الذى يشترى نفسه من ربه بآلاف الجنيهات فيقول « يروى عن حبيب العجمى رضى الله عنه أنه اشترى نفسه من ربه أربع مرات بأربعين ألف درهم أخرج عشرة آلاف وقال : يارب إن كنت قبلت تلك فهذه شكرا لها ثم أخرج عشرة آلاف ثالثة وقال : إلهى إن لم تقبل الأولى والثانية فاقبل هذه ثم أخرج عشرة آلاف رابعة وقال : إلهى إن كنت قبلت الثالثة فهذه شكرا لها .

فها هنا صورتان متضاربتان مختلفتان تماماً عن هذا الولى الكريم — رضى الله تعالى عنه — ونحن لا يسعنا إلا أن نفترض أحد فرضين فى هذا المجال فإما أنه كان غنيا فى أول حياته ثم افتقر أو نكب أو أصابته هزة نفسية جعلته يؤثر الأخير على الدنيا فترك ماله واشترى به نفسه ثم ألمت به الفاقة وحل به الضيق أو أن صاحب روض الرياحين يريد أن يصوره لنا فى صورة الولى الكريم الذى تعرض له حالياً الفقر والغنى وهو فى كلتا الحالتين صابر شاكر لا يأبه للمال إن أقبل بل ويتصدق به ولا يكترث للفاقة إن ألمت وحتى الخوف من المستقبل والحرص على مكاسب الحياة أو تدبيرها لا يمنعه من التصدق على المسكين بمجرد أن يأتى إليه طالبا المعونة وسد الحاجة ، وهذا الغرض هو الأقرب إلى القبول لأنه يتمشى مع روح كتاب روض الرياحين فى حكايات الصالحين إذ يوصى العنوان بأن يريد أن يكتب كرامات الصالحين

وما استطاعوا أن يحققوه باتكالهم على الله تعالى فى حياتهم ومعاشهم والدليل على ذلك تلك الرواية التى يرويها نفس الكتاب عنه فيقول : « روى أنه أصاب الناس مجاعة فاشترى حبيب رضى الله عنه طعاما وفرقه على المساكين ثم خاط أكيسة فجعله تحت رأسه ثم دعا الله تبارك وتعالى فجاءه أصحاب الطعام يتقاضونه فأخرج الأكيسة فإذا هى مملوءة دراهم فوزنها فإذا هى قدر حقوقهم فدفعها إليهم » .

فها هنا يتضح لنا أن المدد أتاه من عند الله ووصل إليه فى ساعة هو أحوج فيها إلى مثل هذا المدد حتى يستطيع أن يرد عنه غائلة الدائنين .

ولكن مع قبولنا هذا الغرض يظل أمامنا سؤال هام وهو : كم عدد النسوة اللائى اقترن لهن حبيب ؟ إذ يروى لنا صاحب روض الرياحين أنه كانت له زوجة سيئة الخلق ويصف لنا من أخلاق هذه الزوجة أشياء لا يمكن أن تكون صدرت من عمرة خصوصاً وأنه تحدث عنها حديث المعظم لها المعجب بطريقتها . ومعنى هذا أن حبيبا تزوج اثنتين إحداهما يحتمل قسوتها ويعينه الله عليها وعلى قسوتها بالفرج الذى يكون على هيئة الكرامة من الله تعالى له . وهذا الزواج من الاثنتين لا يوجب قيامه بجميع شئون الزواج من الممارسة الزوجية وإنما معناه فى عرف الصوفية — وخصوصاً صوفية البصرة — نوع من المصاحبة والمصادقة . وقد رأينا أن رابعة امتنعت عن الزواج بعد توبتها وأن امرأة رياح القيس كانت تحسن معاملة زوجها مع تصريحه بعدم معاشرته لها وحتى رابعة بنت إسماعيل رأينا أنها اقترنت لإشفاقها عليه . ومن ثمة يمكن لنا أن نقول أن زواج حبيب بعمرة ربما كان مؤسسا على هذه المبادىء التى أخذ بها صوفية البصرة ومن والاهم من السالكين فى الطريق حتى يشغلهم عن ربهم شاغل من ولد أو غرض أو لذة أو تمتع .

* * *

تهيأ لنا من هذه الخيوط الدقيقة نسيج متكامل عن شخصية حبيب وزوجه عمرة فقد كان حبيب أعجميا وربما سكن البصرة هو وعمرة وتزوج من عمرة ومن أخرى سيئة الخلق وكان وليا من اولياء الله ذاكرا مات وهبها الله تعالى له كما كان يخرج نهاره كما يفعل صوفية بلده إلى الجبانة وبين الموتى ليستعبر ويقضى سحابة يومه فى العبادة

والتقوى وكانت زوجه ذات تأثير كبير على سلوكه سبيل الصالحين بما كانت تقضى إليه من الحكم الغالية والمواعظ الثمينة والنواهى الزاجرة .

على أن ما يلفت النظر فى تصوف هذين الزوجين الكريمين ما ورد عن حبيب من أنه اشترى نفسه بأربعين ألف درهم أخرجها على علانية من الناس وذلك تمشيا مع قوله تعالى « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » فهذا الشراء أسلوب اصطنعه حبيب إلا أنه يمنى من العبادة والتقوى وأداء الفرائض غير منقوصة وقد فهم هو ذلك عندما جاءه الرسول ينقده أجره عن عمله فقال لزوجته « قولى لحبيب يجد فى العمل » فالعبادة والفريضة نور كلما غمر المؤمن استزاده وكلما وصل إلى القلب أحياه وأسعفه .

وقد فرقت عمرة بين وجعين وألمين : ألم القلب وألم الجسد وروت أن الألم الحقيق ليس هو ألم الجسد إنما هو ألم القلب . ويروى فى ذلك أنها اشتكت من عينيها مرة فقيل لها : ما حال وجع عينيك ؟ فقالت : وجع قلبى أشد فهذه التفرقة بين وجع القلب ووجع العين سنجدها تتضح عند من يأتى بعدها من الصوفية فيؤلف أبو طالب المكى قوت القلوب وغيره فى طب القلوب وكل ذلك ليخططوا للبشر طريق الهداية الصحيحة والسعادة الحقيقية والرحمة المزجاة . والفضل فى ذلك راجع لمن بدأوا الطريق وفتحوا الصخور حتى مهدوا الدروب لمن جاء بعدهم من السالكين . رضوان الله عليهم أجمعين .